تبســـــم !!

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

« تبسم ! ! »

« إيه ؟؟ »

« تبسم ! ! »

« أتبسم ؟؟ »

« نعم . . »

« هل تريد منى أن أتبسم ؟ . »

« نعم . . هذا ما أعنى »

« ولـكن كيف ؟ . أعنى أنى لا أريد . . . لا أشعر بحاجة إلى الابتـسام ؟ »

« ألا تستطيع أن تتبسم ؟ . »

« ربما أمكن أن أتبسم بفمى فقط ولـكن هذا ليس ابتساما »

« بفمك .... برجلك ... تبسم والسلام »

فقلت : « طيب هه » وتكلفت الابتسام كما أراد فقال : « حسنا .. والآن .. جرب مرة أخرى »

فنظرت إليه — حدقت فى وجهه فقد خامرنى الشك فى عقله ولـكنه كان ساكناً لا يبدو عليه غير ما ألفت منه . ولما طال نظرى إليه قال : « هل فرغت ؟؟ إنى منتظر »

فسألته « ماذا تنتظر ؟ . »

قال : « أن تتبسم .. تفضل »

فلم يسعنى إلا أن أضحك وأن أضرب كفاً بكف فقال : « هذا أحسن ... ولا بد أنك تشعر أنك أحسن حالاً بعد هذه الضحكة العالية »

فأمسكت عن القهقهة — أعنى حبست ما كنت أريد أن أنفجر به من ذلك — وقلت له : « ما هى الحكاية .... لست أكتمك أنى مستغرب سلوكك فى هذه الليلة »

فقال : « استغرب ما بدالك أن تستغرب .... إنما المهم أن تتبسم »

قلت : « شىء جميل ولـكن ألا ترى أن الأمر يحتاج إلى شىء من الايضاح .. الواقع أنى لست فاهماً شيئاً »

قال : « لا بأس . إسمع . إنك رجل كاد ينسى الابتسام وهـذا هو مرضك لا ما تتوهم أن معدتك وأمعاءك مصابة به . ليس بك شىء . كن من هذا على يقين جازم . وإنمـا الذى بك أنك لم تعد تعرف سرور الحياة . والذنب فى هـذا لك لا للحياة . لاتقل لى إن الحياة لم تعرض عليك إلا صفحاتها الدميمة التى تثير الاشمئزاز والتقزز وتغرى النفس بالـكآبة والجهامة فان هذا الـكلام فارغ . وأنت الذى أغريت عينك بهذه الصور القبيحة ولولا ذلك لاستطعت أن ترى الصفحات الأخرى المشرقة الوضيئة التى تنعش النفس وتحييها وتجددها . بل إن الذى تتعلق به عينك من صور القبح والدمامة لا يخلو من جمال يشرح الصدر ويفرح القلب . وليست هذه فلسفة ولـكنها هى وصف للواقع من أمرك وأمر المتفلسفين الذين يقرأون ولا يفهمون . نعم لا تفهمون .. تقول إنك قرأت الأدب الانجليزى وتوفرت عليه وأنا أعرف ذلك ولا أجهله ، وأعرف أنك قرأت أديسون فلماذا لم تفهم صورته الوصفية لجبل الهموم أو تله أو ما شئت فسمه . الواقع أنك قرأت ولم تعن إلا بالجانب الذى يوافق مزاجك النفسى الذى أسمح لنفسى أن أسميه الأعور — أى الذى لا يرى إلا بعين واحدة ولا يتأثر إلا من جانب واحد . أتقول إن الأمر أمر خلقة وطباع .. لاياسيدى ... إننا نتعلم كيف نضبط غرائزنا وطباعنا الحيوانية ، وكذلك نستطيع أن نهذب ما نظنه طباعا فطرية فى نفوسنا لا تقبل التهذيب والتنقيح والصقل . على أن المسألة ليست مسألة طباع وإنمـا هى مسألة نظر ، فلماذا تنظر إلى جانب السوء وحـده ولا تنظر أيضاً إلى جانب الخير والحسن والجمال والفكاهة ... باختصار — أنظر واضحك يا سيدى ... ولن تعدم ما يضحك فى أى أمر وأى حال ، واعلم أنك حين تضحك يتأثر جسمك كله وأعصابك أيضاً . وثق أن ضحكة واحدة تطلقها كافية لتغيير حالتك النفسية ... هذا علاجك .. فاذهب عنى ولا تعد إلى فأن شفاءك فى يديك »

وخرجت أقول إن هذه فلسفة جديدة لا تستحق ما غرمت فى سبيلها ، ومشيت أفكر فى هذا ومضيت أبدى وأعيد فيه بينى

وبين نفسي فاصطدمت برجل كان مقبلاً على فصاح بي بعد أن حك أنفه كما حككت أنا أنفي « الله واخد عقلك يتهنا به ... مالك كده زي المسطول » فغلا دمي حين سمعت ذلك ثم ذكرت نصيحة الطبيب فضحكت فقال الرجل « وبتضحك كمان » فقلت له « يا أخي إذا كنت أنا مسطولاً فأنت مثلي ، وإذا كان شيء قد أخذ عقلي فان عقلك لم يكن على ما يظهر في مكانه . ثم إن منظرنا حين اصطدمنا لا شك يبعث على الضحك . وقد ضحك الأطفال والرجال والنساء وكادت الحيوانات تضحك حين وقعت المصادمة والتقى الأنف بالأنف فلماذا تضحك الدنيا كلها ولا يعبس فيها ويتشاجر ويتشاتم إلا أنا وأنت » فقال صدقت .. معك الحق » وصافحني ومضى عني راضياً

ودخلت « قهوة » أو « مقهى » فألفيت إخواناً لي يلعبون « الورق » وهو شيء لا أحسنه ولا استعداد عندي لفهمه . وكان معي أصحابي اثنان لا أعرفهم فقدموني إليهم وسموهم لي بأسمائهم فقعدت على كرسي بعيداً عنهم ، ثم ضجرت فوقفت أنظر إلى اللعب وإن كنت لا أفهم شيئاً ، ولكني رأيت هذا خيراً من الوحدة . ولم أشأ أن أظهر جهلي فجعلت أتظاهر بالفهم . ولم أكن أقول شيئاً ولكني كنت أبتسم كأني فاهم . واتفق أن أحد الغريبين كان أكثرهم كسباً فنظر إلي فألفاني أتبسم فقلب الورق وأشار إلي وقال : « كلة من فضلك » وتراجع عن الكرسي فدنوت إليه ووقفنا بجانب مرآة كانت خلفه فقال — أوهمس على الأصح — : « إنك تعرف بالطبع أن هذا اللعب مزاح لا جد فيه »

قلت : وأنا أستغرب هذا الكلام الذي لا أرى له داعياً « لم أكن أظن هذا » وابتسمت ، فقد بدا لي أن من المستغرب بل من المضحك أن يكلف نفسه عناء التأكيد لي أن اللعب لا يراد به أكثر من تزجية الفراغ . ومالي أنا .. ما شأني بهم ... أتراه توهمني من الشرطة . . أم ترى هذا المحل من المحلات التي لا يباح فيها لعب الورق

كان هذا يدور في نفسي وهو يقول لي : « بالطبع مزاح .. وسيرد كل منا ما كسبه إلى إخوانه .. وقد أردنا أن يظهر كل منا براعته في ... في ... فاهم ... أليس كذلك .... هذا لا يسمى غشاً ... لالا .. أستغفر الله ... لو كنا نلعب جادين لكان غشاً ولا شك ، ولكن في المزاح يجوز ما لا يجوز عند ما يجد المرء . . أليس كذلك ... هه هه .. »

ومضت أيام فلقيت واحداً أعرفه ومعه فتاة في بعض الطريق ولم أنظر إليهما ولكني كنت أنظر إلى الناحية التي أقبلا منها ، وكنت أبتسم لخاطر في نفسي فوقعت عيني في عين صاحبي هذا والابتسامة على فمي فأقبل يعدو ورأى حتى أدركني ثم تنحنح وقال : « مممممم أظنك ... يظهر ... أريد أن أقول ... الحقيقة إنها بنت عرفتها أمس .. ولكن .. أعتقد أنك .. أعني أني .. الواقع أنه لا شيء هناك بيننا.. معرفة جديدة ... بنت حلال ...»

وقد سقت عباراته بعضها وراء بعض ولكنه كان يتنحنح كثيراً ويمسح العرق المتصبب بمنديل كبير فلم يسعني إلا أن أضحك فما استطعت أن أفهم لماذا رأى من واجبه أن يجشم نفسه هذا البيان أو الاعتذار ... لست أباه ولا أخاه ولا أنا وصي عليه ولا لي عليه أي سبيل ...

وقد حال الضحك دون الكلام — أعني دون الجواب — فصافحته وتركته يمسح عرقه

وركبت الترام مرة وكان الجالس أمامي في يده جريدة يتأمل صفحتها المصورة وكنت أنا أتسلى بالنظر إلى الطريق من النافذة التي وراءه فرأيت فتى علق ثوبه الفضفاض بدراجة ولم يستطع تخليصه منها فجعل يجري معها وراكبها لا يعنى بالوقوف فابتسمت وكانت الدراجة تساير الترام فظللت أتبسم ولولا الحياء لقهقهت وإذا بجليسي يتكلف الابتسام ويتحرك في مقعده ويقول فجأة — فما كان بالي إليه بل إلى المنظر الذي وراءه — « الحقيقة أن الفن الصحفي تقدم جداً »

فتنبهت وقلت : « جداً .. صحيح » وجازيته ابتساماً بابتسام فسعل وقال : « الانسان معذور إذا بدأ بصفحة الصور وما فيها من المناظر الجميلة »

فاستغربت كلمة « المناظر » وسألته « المناظر »

قال : « أعني صور الفتيات الجميلات ... ولكني لا أشتري الجريدة لهذا وحده .... لا لا لا أعوذ بالله .. أرجو ألا تكون جعلتني من هذا الفريق الذي لا يعنيه من الصحف إلا صور النساء لا لا لا .... أؤكد لك أني أقرأ .... أقرأ .... أقرأ كل شيء